

ما هو منظور من الاحياء كذلك يطرد ما يخفى من الجرائم ومثله القطران فان الجرائم تهرب منه كما تهرب الخنافس والبراغيث ونحوها ولذلك لا يصاب بالطاعون من كان مشتغلاً بالقطران ملتصقاً به كما شوهد عياناً على ما يقولون

ولقد كان في جملة ما حدثوا عنه في هذا السبيل ان الحمى الصفراء الشديدة الفتك حينما علةت في سنة ١٨٨٧ بمقاطعات لوزيانا وتكساس وفلوريدا من اميركا الشمالية تناولت فيها اكثر الناس على اختلاف حرفهم وحالاتهم واكثرها تخطت المشتغلين بحرفة الطباعة وقد كان مثلها الهواء الاصفر فانه حين انتشر في شيبي مرة وقتل من اهلها الوفاً لم يتناول واحداً قط من رجال الطباعة بشهادة جمعية الطباعة نفسها. ولعل هذا صحيح لاننا نذكر ان احداً من المشتغلين بهذه الحرفة عندنا قدمنا بالطاعون او الهواء الاصفر حين انتشارها بيننا وقد يكون ذلك بسبب الذرات المتطايرة من الرصاص او بسبب الحبر وما فيه من زيت وسخام

ولقد حدثوا عن تأثير طرق عديدة على نحو ما تقدم وكما مما يقضي بالعجب ويدل على ان اقبح الحرف في الظاهر وادعائها الى السقم والموت قد تكون في بعض الحالات من اشد الموانع المرضية واكثرها حرصاً على سلامة متعاطيها

هذا ولا يبعد ان تكون الخمر والحشيش والافيون وامثالها من المنبهات الخدرات مانعة لكثير من الامراض المعدية لانه يوجد من متعاطيها الوف قد طالت اعمارهم وحسنت صحتهم وهم يتعاطون في الظاهر اشد دواعي السقم والموت

كتاب اولادي - (تابع ما قبله)

اما شرف النفس فانه شديد الارتباط والعلاقة بحربة الضمير والاخلاص اذ هو كتكميل لهما بما يزيد عليهما في علائق الرجلين بعضهما بعض من شعائر الطمأنينة والارتياح التي تملها مبادئ الشرف وتوحي بها روح الاستقامة وعلى الجملة فان من تبع جادة الاستقامة وسلك طريق الصلاح فقد حوى في شخصه جميع الكمالات التي تقدم لنا ذكرها وكان عادلاً حازماً نزيهاً وافر القسط من الهدى والرشاد بعيداً عن مظان الزيف والضلال فما مثل الاستقامة فضيلة تتضمن افضل ما يجعل الانسان من اهل الصلاح والخير والشبان الذين احرزوا او اخذوا باحراز مجموع هذه المناقب والحامديكونون قد وفوا قسطاً كبيراً من تثقيفهم الادبي وعلقوا باهداب الكمال بحيث لا يكون باقياً لهم بلوغ قته الا اليسير من الشروط الثانوية التي هي قريبة المنال سهلة الادراك بدون كبير عناء. ولكن لا يجوز مع ذلك اغفالها نظراً لما لها من الاهمية في حد ذاتها واني اجتزى عن التبسط في الكلام عنها بسردها سرداً بسيطاً وهي

الاعتدال في الاقوال والافعال الذي يؤخذ دليلاً على قوة الارادة وسلامة الفكر

الكتمان وحفظ اللسان وهما شرطان اذا لم يراعيا حق المراعاة اصبحت العلاقات بين الرجلين حتى الصديقين مفصومة العرى واهية الرباط التواضع وهو الذي قال عنه لابردبير انه ضروري للفضل ضرورة الظلال للصور المرسومة فهي تزيدها ظهوراً وبهاء

البشاشة والبشر اللذان هما من الدلائل الظاهرة على كرم النفس وطيب جوهرها

الترتيب في الافكار والاعمال والشؤون المادية وهو الذي بدونه يضيع قسم كبير من العمل ويذهب سدًى على غير طائل

استخدام العقل الذي يعين الارادة على الظهور بمظهرها النعال واخيراً القناعة وهي الاعتدال والبساطة في الغذاء والى هذه الخلال لا بد من اضافة الكراهة والاحتقار لكل ما كان سمجاً ساقطاً ذليلاً كاخلاعة والادمان على المسكر والدعارة وسائر ما يديني الانسان من الحيوان الاعجم واني احذر الشيبية من الاستسلام الى هذه المذات المعيبة ولا سيما وان عادتنا اذا لم تدفع اليها فانها لا تدفع عنها فضلاً عما تظهره الاداب السائرة من التساهل والاغضاء عن بعض عيوب ليس اشد آفاتها ما اصاب الجسم ولكن ما اعتلت منه صحة النفوس والاخلاق ثم ما يخشى على تأصله في الشاب الناشئ من الذوق الفاسد والعادة السيئة

وهي عيوب يكون التوقي منها ايسر بكثير من الاقلاع عنها بعد ما تكون علقته بالانسان وعلق بها لان من انصرف ردهاً من الزمن الى تعاطي الاغذية المصنوعة بالتوابل ويجد الاغذية الصحية الصالحة عند العودة اليها تافهة لا طعم لها . وعندني ان هجر مثل هذه التجارب الخطرة والاقلاع عنها بتاتاً مع التزام جادة واحدة قوية خير من الدخول فيها والوقوع في حبالها

ولا يعزب عن خاطر ان النفع كل النفع في العمل بهذه الاقوال لان فيها ما يصون كرامة الانسان فضلاً عن صيانة العقل والجسم معاً وبهذه

الكرامة ينال اكرام الناس عامة واحترام الجمهور . وتقوم الكرامة في احترام الانسان لنفسه وفي اجتناب ما يحطه في عيني ذاته وفي اعين الغير وما كان شأن الشهوات السمجة الساقطة الا ان تجرّ الى هذا الانحطاط . ومهما يكن مبلغ الاحترام الواجب علينا نحو انفسنا فان احترامنا للغير اوجب وألزم ولقد يتعين علينا نوع اخص ان نؤدي الاكرام ونظهر الرعاية للشيوخ وللنساء وللذين يمتازون بفضلمهم وفضيلتهم والوظيفة التي يقومون بها ولا شيء ادل على التربية الحسنة والتهذيب التام من اكرام الناس واحترامهم . ولقد جرت عادة القول ان الشيبية قليلة الاكرام وهو قول اذا صح كان دليلاً على ضعف ادبي وعلى ضياع الكرامة الشخصية وداعياً لمقاومتها بكل الوسائل الفعالة والطرق الممكنة

وما قيل عن فقد الاحترام يصح ان يقال عن تلاشي روح النظام وهو شر حاصل وبيل العاقبة على البلاد لانه اذا اختل النظام تزعزت اركان الهيئة الاجتماعية وتهدمت المدنية نفسها كما بيد الجيش انفرط عقد نظامه . ألا ان قوة الجموع تنال بفضل النظام

ولا غضاضة على استقلال المرء وأنفته اذا اطاع وهو عايش او عامل مع غيره الشرائع والنظامات التي تصبح الشعوب بدونها شراذم ضعيفة الشأن والجيوش عصابات مسوقة الى الانكسار والخذلان

ان الشاب الذي وطد نفسه على امتلاك قيادها وعلى الخضوع لهذا النظام العقلي وهما الشرطان اللذان لا بد منها لرجل الواجب ورجل الشجاعة يهون عليه احترام احكام النظام العسكري والنظام الاجتماعي ويعلم ان من

تعلم الطاعة كان جديراً بان يتولى ازمة النهي والامر . وما كان الجندي
الرددي ليحسن قط مهام الرئاسة والقيادة

واني اخاطب هذا الشاب وانا على ثقة من استماعه قولي له . كن محباً
للنظام ملازماً للاحترام محتفظاً بكرامة الحياة

ورغبة في تلخيص ما تضمنته السطور السالفة من شتى النصائح
واقوال الارشاد وجعلها جملاً مختزلة واعية اقول . احب الحقيقة وكن في
كل شي صادقاً بلا تكلف ولا رياء وكن حر الضمير مخلصاً مستقيماً نزيهاً
وكن معتدلاً كتوماً للسروديع الخلق ثم كن مجتهداً نشيطاً راغباً في النظام
والترتيب فنوعاً لطيفاً

وهذه كلها واجبات مختلفة الانواع والاهمية ولكنها واجبات على كل
حال وتستلزم الطاعة والخضوع

الباب الثاني

العدالة والاخاء

اذا اردنا ان نعدّد واجبات الانسان نحو ذويه لكانت العدالة في
الصف الاول وكذا لو حاولنا ان ننشئ جريدة بما يجب على الانسان في الحياة
الاجتماعية لزم ان نجعل العدالة في رأسها واولها . وكما ان على الانسان
واجباً يطالبه به الغير وهو العدالة كذلك له حق يتقاضاه من ذويه ومن الحياة
الاجتماعية وهو العدالة ايضاً . اذ انه من الثابت المقرر ان الواجبات

والحقوق متلازمة التبادل فمن قام بما عليه من الواحدة حق له ان يثق
بمحصوله على ما له من الثانية

وما قيل عن العدالة يصح ان يقال عن الاخاء الذي هو واجب على
الانسان نحو اخيه ولو لم يقابله حق معين واضح طريق المقاضاة به

فعلي من احب القيام بالواجب ان يكون ذا عدالة واخاء . تلك هي
الشريعة التي تشرف على هدى الانسان وهي قاسية شديدة المراس ورفيقة
لطيفة معاً

وعندي ان عاطفة العدالة قد وجدت فينا سابقة لكل تربية وتهذيب
وهي احدي القواعد الادبية التي من دونها لا تقوم قائمة شريعة من الشرائع
الانسانية عن حق ولا يكون شي وجود فهي كاحدي الحقائق الثابتة التي
شيدت عليها دعائم الهندسة فلو عن لنا بال ان نضعها موضع الشك
والريب لتهدد بالهدم علم الطبيعيات وما ياحقه من اكثر العلوم والمعارف التي
هي من مفاخر الانسان

فلنضع اذن كلمة العدالة فوق كل جدال ونزاع وهي تريد ان نعطي لكل
ذوي حق حقه وعلى ذلك تعتبر العروة الوثقى والاولى للجمعيات الانسانية
التي ما تشككت الا واتخذت شعاراً لسلطتها العليا الدفاع اولاً عن كيانها ثم
اجراء العدل بين الناس . وما عاش الناس في سلام وساد الوئام بينهم الا
بعد ما اثبت بينهم روح الانصاف وانتصب قسطاس العدل

ألا ترى ان الرجل الذي لم تفسد قلبه الانانية والاعراض دائم التلبية
لداعي العدل كلما ناداه فهو يحكم في كل امر بحسب ما يوحى اليه شعوره هذا

فاما انطلق لسانه بالمدح او الذم اذا كان الفاعل غيره واما تولاه انشراح
داخلي لا تبكيت من ضميره ان كان الفاعل هو نفسه

ولقد قال برودون ان الانسان خلق للعدل قبل كل شيء مستشهداً
على ذلك بتاريخ الامم حيث قال ما من تعليم انى كان مبلغ اهميته الا وكان
مجالاً للشك وسبباً لاضرام نار معركة هائلة . اما فوز العدالة على الاثرة
والانانية في آخر كل معركة فقد كان من ابداع مظاهر البسيكولوجيا (علم
النفس) وهو مع دلالاته على ما للضمير من التأثير الفعال القوي فهو برهان
ايضاً على ضمانته الكبرى

واعلم ان انصاف الانسان لذويه هو واجب حتمي مطلق ولقد تضمنت
الوصية التي وردت في الانجيل الكريم قائمة لا تفعل بالناس ما لا تريد ان
يفعله بك الناس الامر بالعدل والانصاف مع شيء من الزيادة عليها لان
هذه الوصية وان تكن على صيغة النهي فان التحميم بعدم الفعل بالناس ما
لا ترضى ان يكون مفعولاً بنا يتجاوز الى ما هو غير عادل فعمله وذلك لان
كثيراً من الامور التي تصح عدلاً لا تصح اذا عملنا بموجب مبداء هذا
التبادل في المماثلة بين الناس . وفضلاً عن ذلك فان تعليم الانجيل يكتمل
بهذه الوصية الاخرى الامرية التي تقول افعل بالناس ما تريد ان يفعلوه بك
وهو يشتمل ايضاً على هذه الوصية وهي احب قريبك كنفسك

تبين مما تقدم ان واجبات الانسان نحو ذويه تقوم بالانصاف والاخاء
وكف الاذى وبذل المعاونة والمحبة

يقضي علينا واجب العدالة ان نحترم الناس في حياتهم وحرمتهم واموالهم
وشرفهم ومعتقداتهم ومواطنهم . ومن حيث ان هذا الواجب متساوٍ على

غيرنا وعلينا فيكون لنا ان نتقاضى حق مراعاة الغير لهذا الاحترام بالنسبة
لانفسنا . والمجتمع الانساني مدين لنا في احقاقه هذا الحق بموجب شرائعه
ولكن الشريعة لا يمكنها ان تتناول وتقضي الا على ما كان محسوساً مادياً
واما الاداب فحكما اشد فهي تشجب ما لم يسبب ضرراً ظاهراً وحتى ما
جال طبي الفكر والضمير . ولقد تقضي على عمل ولو لم يكن مستلزمًا للوم
والمذمة وغير وخيم العاقبة اذا كانت النية منه سيئة . وهذا ما لا تستطيع
الشرائع ادراكه وتقصيه دون ان تتعدى دائرة حدودها وتشط عن الخطة
المرسومة لها

وتقوم الاستقامة بمراعاة الواجبات التي تأمر بها الشرائع والاداب
معاً مراعاة دقيقة . فالرجل المستقيم هو صاحب اشرف بعينه وهو الذي
ينبغي ان يكون قدوة المنطلق في ميدان الحياة وقد تزود بوصيتنا له « كن
عادلاً مستقيماً » ثم نردفها بهذه الوصية الثانية التي تلتطف برفقها من شدة
الاولى وهي قولنا له « كن كريم القلب محباً رؤوفاً »

ومن الثابت ان التربية والارادة تجعلان الرجل عادلاً ولكن هل
يمكنها ان تجعله كريم القلب فقد يزعم الكثيرون بامتناع ذلك وان الانسان
يولد صالحاً او شريراً بحيث لا سبيل لنقض ما بنته الطبيعة

فهل ذلك صحيح ؟ قبل الاجابة على هذا الزعم يجب ان نعلم هل هو
غفير عدد الرجال الذين هم في الحقيقة اشرار

كان يقول جان جاك روسو ان الرجال اشرار ولكن الرجل صالح وهو
ما يفيد ان الرجال اذا كانوا اشراراً جمعاً واهمالاً فما خلا كل منهم على افراد
من صلاح وخير . ولا نشك ان الفيلسوف مصيب في قوله فما اقفر قلب